

عفاف عبد الغفور حميد

إسهامات السنة النبوية في بناء الحضارة الإنسانية

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، والصلاة والسلام على معلم البشرية وهادي الإنسانية الذي أرسله الله رحمة للعالمين وحجة على الناس أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين. فقد عرف بين المسلمين أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع، ولا خلاف في ذلك، أما عن مساهمة السنة في بناء الحضارة الإنسانية فهذا ما يجمله كثير من المسلمين قبل غيرهم.

وقد جاء في القرآن ذكر وظائف الرسالة الحمديدية في أربع آيات ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة: ١٢٩، وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ آل عمران: ١٦٤، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

الجمعة: ٢، وفي الرابعة زيادة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٥١، فالجانب التعليمي المعرفي هو جزء من المهمة النبوية. وتعليم الكتاب أخص من تلاوة الآيات، فالمراد شرحه نظرياً وتطبيقه عملياً وهو المراد بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: ٤٤.

استطاع النبي ﷺ بتربية الأمة على الإيمان الشامل، أن يصنع أمة متميزة سماها الله ﷻ أمة وسطاً ﴿البقرة: ١٤٣﴾ و﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ آل عمران: ١١٠، وسأحاول في هذا البحث أن أوضح الأسس والمقومات التي جعلت من سنة الرسول ﷺ ميداناً للمعرفة التي هي أصل الحضارات، فأسهمت بشكل فاعل في بناء حضارة باقية خالدة وإن مرت عليها فترات ضعف ولكن فيها من المقومات ما يجعلها تنهض من جديد وتستعيد قوتها ومجدها بأذن الله.

معنى الحضارة

الحضارة في المعاجم اللغوية : الإقامة في الحضر والأمصار والمدن والقرى، في مقابل الإقامة بالبوادي وما أشبه ذلك.^١

ويقال: رجل من أهل الحاضرة، ورجل من أهل البادية، والحاضرة خلاف البادية: فهي المدن والقرى والريف، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار وسكنوا الديار التي يكون لهم بها قرار.

ومن مرادفات الحضارة: المدنية واتساع العمران، فالحضارة والمدنية لهما معنى واحد، أي مترادفان.

ويقابل الحضارة أو المدنية: الوحشية أو الهمجية، وهي تعني أن يرى على الناس مظاهر حياة المجتمع البدائي، أي غير المتحضر.

^١ الرازي، محمد ابن أبي بكر. ١٩٩٣م. مختار الصحاح. بيروت: دار الفكر. مادة حضر.

واصطلاحاً: هناك تعريفات كثيرة أشهرها: "مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني تتمثل في إحراز التقدم في ميادين الحياة والعلاقات الاجتماعية، وفي مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي، مخلفة في ذلك تراثاً يمكن أن ينقل من جيل إلى جيل"^١. وستخذ من هذا التعريف ميداناً لهذا البحث لإبراز الحضارة الإسلامية التي ساهمت فيها السنة النبوية.

وقد عرفها البوطي فقال: "بأنها ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة"^٢، ويلاحظ أن التعريف يتضمن -حسب رأيه- عناصر الحضارة الثلاثة: الإنسان والكون والحياة.

ويرى آخر أن الحضارة "هي ولادة داخلية يحس بها المجتمع عندما يعيش ظروفاً معينة تسمح بالولادة والنضج" أي أن ظهور أي حضارة لم يكن تلقائياً، بل له أسباب وعوامل مرتبطة بالسنن الربانية، فالتحضر لا يحدث إلا بالتحويلات الداخلية المرتبطة بالتحويلات الخارجية مما ينقل الأمة من مرحلة إلى أخرى أعلى في سلم التحضر، وهذه النقلة لا بد أن تقوم على أسس ووفق سنن الكون والقدرة الذاتية للأمة.^٣

وللحضارة الإنسانية قصة طويلة أفاض في سردها كثير من العلماء والباحثين، ومنهم عبد الرحمن بن خلدون، الذي وضع كلمة الأساس في الحضارة أو المدنية عندما قال: إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: "الإنسان مدني بالطبع" أي لا بد من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران.^٤ أي أنه بالفطرة مجبول على التحضر والتمدن والارتقاء بأموره

^١ محمود، علي عبد الحليم. ١٩٩٤م. التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلب عليه. المنصورة: دار الوفاء. ص ١٧.

^٢ البوطي، محمد سعيد رمضان. ١٩٩٢م. منهج الحضارة الإنسانية في القرآن. دمشق: دار الفكر. ط ٢. ص ١٩.

^٣ راجع محمد هيشور ١٩٩٦م. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ص ٤٩، ٥٤.

^٤ ابن خلدون. د.ت. المقدمة. بيروت: دار الكتب العلمية. ص ٣٣.

كلها، بما وهبه الله في روحه وعقله وجسمه من قدرة على الارتقاء والتقدم في مجال الحياة، وتطويرها لتحقيق ضرورياته ثم حاجياته، ثم كمالياته مرحلة بعد مرحلة. وعرف ابن خلدون الحضارة في مقدمته فقال "والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة وجوهر ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجاداته والتأنق فيه يختص به، ويتلوا بعضها بعضاً، وتكثر باختلاف ما تترع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف، وما تتلون به من العوائد^١. وهو بهذا التعريف يؤكد على أن الحضارة هي تحقيق الكماليات لأن الضروريات لا تحتاج في الحصول عليها إلى تحضر أو تمدن، فيقول "الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر ..."^٢

فالحضارة عند ابن خلدون تأتي بعد استكمال الضروريات والحاجيات، فهي عنده تحسينات أو كماليات تحقق الرفاهية وما تتطلبه الرفاهية من إحكام الصنائع في المساكن والملابس والمآكل، وهي متفاوتة من أمة إلى أخرى، ومن درجة رفاهية إلى أخرى تفاوتاً غير منحصر.

والذي ذكره ابن خلدون تناول الجانب المادي أو مظاهر الحضارة وآثارها، وهذا لا يمنع عنده أن يكون للحضارة لب وجوهر يتمثل في القيم التي تعكس هذه الحضارة في حياة الناس، وإنما سكت ابن خلدون عن الجانب القيمي في تعريفه وشرحه للحضارة لأنه معلوم بداهة ولا يحتاج إلى توضيح لأن السكوت عما هو معلوم بداهة جائز، وذلك لأن مظاهر الحضارة تخضع لرغبات النفوس التي تحكمها مجموعة من القيم مما يؤدي إلى التفاوت بين الحضارات، وبين أهل زمان وزمان

^١ المرجع نفسه. ص ١٣٦.

^٢ المرجع نفسه. ص ٣٠٩.

مؤمنين وغير مؤمنين، وليس مثل ابن خلدون -وهو واضع علم الاجتماع- من يجهل أن الحضارة جوهر ومظهر، فهي قيم ومعان تعبر عنها ماديات ومبان فاهتم بذكر النتائج معتمداً على إدراك لما أدى إليها أنه معروف.^١

ثم تطور تعريف الحضارة بمعنى أوسع فقد عرفه محمد فريد وجدي "الحالة الراقية التي توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم العالية والفنون الجميلة والصنائع المناسبة لهذه الحالة، فاكسبت كلمة المدنية بذلك مدلولاً أعم من مدلولها اللغوي واعتبرت غاية تتدرج الأمم في الوصول إلى أوجها الأعلى تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع"^٢، وهذا التعريف أيضاً يذكر المظاهر مع معرفته أن لها بواعث أيضاً.

وقد أنعم الله على البشرية كل حين بإرسال رسول يهيئ لها أسباب التحضر والرفي الروحي والعقلي والبدني والاجتماعي.. ما لو أخذت بها لقطعت أشواطاً كثيرة، ولكن كان يحول بينها وبين ذلك تكذيب الرسل كما هي سنة البشرية. وقد أكد كثير من المفكرين على أثر الفكر الديني في تكوين الحضارات مثل مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة"، ويكاد يتفق المفكرون المسلمون على العامل الروحي والأخلاقي المرتبط بالدين في التحضر "ويبدو أن العامل الأساس في البناء الحضاري وسعادة الأمم هو فقه سنن الله في الحياة والتزامها منهجاً وشرعية في حياة الناس".^٣

وعلى هذا فالحضارة ليست منجزات مادية أو كثرة علمية وإنما "هي روح سامية من الفضائل والخصال الأخلاقية الطيبة تجري في نفوس أبناء الأمة وتزين سلوكهم وسائر نشاطهم كما تتجسد في النظم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية حتى تشمل كافة جوانب الحياة".^٤

^١ محمود، عبد الحليم. ص ١٩.

^٢ وجدي، محمد فريد. دائرة معارف القرن العشرين. ج ٨. ص ٥٥٣.

^٣ هيشور، محمد. ص ٢٨.

^٤ المرجع نفسه. ص ٧١. نقلاً عن زريق قسطنطين، معركة الحضارة، ص ٤٠.

ونظراً لكون السنة هي المصدر الثاني للإسلام فهي بهذا تشكل شطراً من الحضارة الإسلامية، وعليه فلا بد من التعريف بالحضارة الإسلامية قبل البدء بالكلام عن مساهمة السنة في الحضارة الإنسانية باعتبارها جزءاً من كل، وخصوصاً أن السنة كانت تشكل الأسلوب العملي الحضاري في المجتمع المسلم.

الحضارة الإسلامية وأسسها

وصف الحضارة بأنها إسلامية يقتضي أن تكون المبادئ والأسس التي تقوم عليها نابعة من الإسلام وأصوله كتاباً وسنة، والتي تمثل دستور الإسلام ومنهج المسلمين في حياتهم، فهي أصلح لهم لأنها من وضع الخالق، كما إنها ملائمة للفطرة كما قال الله تعالى ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٣٠، ولكن القيم السماوية لا تقيم حضارة إلا إذا قام عليها رجال مؤمنون يعملون الصالحات مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء: ١٠٥، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور: ٥٥.

وأهم الأسس والمقومات التي قامت عليها الحضارة الإسلامية:^١

١. الوجدانية المطلقة في العقيدة، والخالية من أي مظهر من مظاهر الشرك، وهذه العقيدة تطبع كل النظم التي جاءت بها الحضارة الإسلامية.
٢. إنسانية التربة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، حيث أعلنت وحدة النوع الإنساني بكل أنواعه، وبهذا فهي رسالة عالمية "رحمة للعالمين"، تتسع

^١ راجع تفصيل هذه الأسس عند: مصطفى السباعي. من روائع حضارتنا. دمشق: دار السلام. ص ٢٨-٣٢.

آثارها لتشمل جميع الأجناس.

٣. المبادئ الأخلاقية الرفيعة لها الحل الأول في كل النظم والميادين، مستمدة

من النموذج العملي للرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم.

٤. التسامح الديني الذي لم تعرفه أي حضارة أخرى قامت على الدين، حتى

وهي في أوج عزها، تحت شعار ﴿لا إكراه في الدين﴾.

٥. العلم، وهو الأساس الأول الذي تقوم عليه أي حضارة، وكذلك بالنسبة

للحضارة الإسلامية غير أنها قامت على نوعين مترابطين من العلم،

أولهما: العلم الشرعي المستمد من القرآن والسنة، والآخر: العلم الدنيوي

المعرفي الذي غالباً ما يكون نتيجة للأول مستلهماً منه وملبياً لحاجاته،

فلهذا الحضارة الإسلامية تقوم على المبادئ المستقيمة التي أوحى الله بها

ليطبقها الناس الذين يعملون الصالحات مضيفين إليها ما يصلح مرافق

حياتهم بما يجعلهم خلائف صالحين، وبهذا تكون حضارة تحكمها القيم

بأعمال تتصل بالعقيدة وترتبط بها، وسيأتي تفصيل هذه الأسس في بناء

السنة للمجتمع.

وعلى هذا فالحضارة الإسلامية لها جانبان^١: أحدهما ثابت غير قابل للتبديل،

وآخر متغير يستجيب لمطالب الحياة ومستجداتها.

أما الثوابت: فهي الأسس الراسخة التي تقوم على:

١. العقيدة: القائمة على الإيمان بالله وصفاته وأسمائه وتوحيده، والإيمان

بملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

٢. العمل: ويتناول مفردات عديدة أهمها الإسلام وأركانه الخمسة ثم

الإحسان بمعنى المراقبة لله تعالى، والعدل، والشورى، والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، والقيم الأخلاقية الإسلامية، والجهد بأنواعه.

^١ محمود، عبد الحليم. ص ٤٦.

أما المتغيرات في الحضارة الإسلامية فهي ما ليس من الثوابت أو هي مظاهر الحضارة وسماها المادية ليحقق بها الإنسان ما فوق الضروريات من الكماليات والتحسينات. وهذه كلها متغيرة لا تتعارض مع ثوابت الحضارة الإسلامية. وقد جاء الإسلام بوسائل للتعامل مع هذه المتغيرات لقبول الصالح ورد ما سواه. وهذه الأساليب هي (الاجتهاد والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع).

السنة النبوية والمشروع الحضاري الإسلامي

تعد السنة مشروعاً حضارياً لأن الله سماها الحكمة حيث أنزل على رسوله الكتاب والحكمة - كما سبقت الإشارة في المقدمة - في الآيات منها قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ الأحزاب: ٣٤. قال الطبري فيها: " ويعني بالحكمة ما أوحى إلى رسول الله ﷺ من أحكام دين الله ولم يتزل به قرآن وذلك السنة"^١، ومثل ذلك قال القرطبي: "قال أهل العلم بالتأويل: آيات الله القرآن، والحكمة السنة"^٢ والمنهج العملي للإسلام جاء مفصلاً مجسداً في السنة القولية والعملية والتقريرية، وهي تصلح لأن تكون المنهج الحضاري بما تملكه من خصائص منها:^٣

١. منهج شمولي: فإذا كان منهج القرآن شاملاً جامعاً كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ النحل: ٨٩، فإن منهج السنة يسير في إطار منهج القرآن لأنها مبين له. فالسنة منهج لحياة الإنسان كلها.
٢. منهج متوازن: فهو يوازن بين الروح والجسم، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة، وبين المثل والواقع، وبين النظر والعمل، وبين الحرية والمسئولية

^١ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. ١٤٠٥هـ. تفسيره. بيروت: دار الفكر. ج ٢٢. ص ٩.

^٢ القرطبي، أبو عبد الله. ١٣٧٢هـ. تفسيره. تحقيق أحمد عبد العليم اليردوني. القاهرة: دار الشعب. ط ٢. ج ١٤. ص ١٨٣.

^٣ القرضاوي، يوسف م. ٢٠٠٠م. كيف نتعامل مع السنة النبوية. القاهرة: دار الشروق. ص ٢٦.

والفردية والجماعية، والأمثلة على ذلك كثيرة سنذكر شيء منها خلال البحث، وقد كان ﷺ المثل الأعلى في التوازن في حياته كلها كما دلت على ذلك سيرته مع ربه ونفسه وأهله وأصحابه والناس أجمعين، وكان من دعائه القرآني: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ البقرة: ٢٠١ ومن دعائه أيضاً: " اللهم أصلح ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخري التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي من كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر".^١

٣. منهج تكاملي: يتكامل فيه الإيمان مع المعرفة، أو الوحي والعقل ليكون منها "نور على نور" فكل جوانبه تتكامل مع بعضها ولا يغني أحدها عن الآخر، كما تتكامل القوة مع الحق، والسلطان مع القرآن، والدولة مع الدعوة... وكل ذلك كان مجسداً في شخص الرسول ﷺ، فقد كان صاحب القرآن والسلطان، أو صاحب الدعوة والدولة، وهو كان يؤم الناس في الصلاة ويحكم بينهم في الخصومة، ويقودهم في المعارك، وفي السياسة والسلم والحرب. وهذا التكامل كان بين القيادة والشعب، ولم يكن القائد منعزلاً عنهم، كما يتكامل المؤمنون فيما بينهم وكل يبذل أحسن ما عنده فتتجمع الطاقات لتكون قوة عظيمة لها وزنها وهيبتها.

٤. منهج واقعي: يتعامل مع الناس وفق بشريتهم، وليس كملائكة بل لهم غرائزهم وشهواتهم، وأخطائهم التي تقبل التوبة، كما لهم تطلعاتهم الروحية، ولذلك فإن حالة الإنسان تتغير، حتى ظن بعض الصحابة أنه

^١ رواه مسلم عن أبي هريرة. كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب التوحد من شر ما عمل وما لم يعمل برقم (٢٧٢٠). ج ٤ ص ٢٠٨٧. والبخاري في الأدب المفرد برقم (٦٦٨). ج ١ ص ٢٣٣. والميني في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ١١٠ والطبراني في الأوسط ج ٧ ص ١٩٩. والصغير ج ٢ ص ١٢٧. والمزي في تهذيب الكمال ج ٢٢ ص ٢٨٤.

نافق وهو حنظلة عليه السلام، لأن حالته في البيت تغيرت عن حالته في حضرة الرسول عليه السلام وخرج يركض حتى انتهى إلى رسول الله وهو يقول «نافق حنظلة نافق حنظلة» وبعد أن شرح للرسول الموضوع قال له: «يا حنظلة ساعة وساعة»^١.

ومن أجل ذلك فقد راعت الشريعة ضعف الإنسان ووسعت دائرة المباحات وضيق المحرمات، وشرعت الرخص، وراعت الفروق الفردية بين الناس، وفرقت بين أحوالهم المختلفة.

٥. منهج ميسر: يمتاز بالسماحة واليسر وهذا من ثمار واقعيته، كما أنها من أوصاف صاحب المنهج كما قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾ الأعراف: ١٥٧، فلا يوجد في سنة هذا النبي ما يخرج الناس في دينهم وكان يقول: «إن الله لم يعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً»^٢ كما شرع الرخص والتخفيفات في كل أمور الشريعة وأجزائها عند الضرورة، وفي تحذير الرسول عليه السلام من الغلو والتطرف أقوال كثيرة ترجع في مضامها من المصادر.

^١ وفي الحديث أن حنظلة دخل على رسول الله عليه السلام مع أبي بكر وقال: .. نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله عليه السلام «وما ذلك»، قال: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً فقال رسول الله عليه السلام: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات» رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل دوام الذكر والفكر ... وترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، (٢١٠٦) ج ٤ ص ٢١٠٧. ورواه الترمذي (٢٥١٤). كتاب صفة القيامة والرقائق والورع من رسول الله عليه السلام ج ٤ ص ٦٦٦. مسند أحمد ج ٤ ص ٣٤٦.

^٢ رواه مسلم في كتاب الطلاق. باب أن تحيير أمراًته لا يكون طلاقاً إلا بالنية ح (١٤٧٨). ج ٢ ص ١١٠٤. والبيهقي. السنن الكبرى ج ٧ ص ٣٨.

بناء السنة للحضارة الإنسانية

الحضارة الإنسانية "هي ثمار الجهود التعاون الإنساني، في نطاق الاستفادة من دخر الأرض وخيرها، وإنما تتمثل أصول هذا الجهد في منهج تربوي متكامل يؤخذ به الإنسان بوصفه فرداً مستقلاً، وعضواً في جماعة".^١

إن البناء الحضاري للسنة أخذ بعداً عالمياً للإنسانية كلها، لأنها الرسالة الخاتمة، والرسول بعث للناس جميعاً، وقامت السنة في هذا البناء على أسس أهمها وفي مقدمتها العلم الذي مصدره الوحي للعلم الشرعي، وموجهاً للإنسان ومكلفاً له لاكتشاف العلم الدنيوي بما يصلح حالهم ومآلهم، وعلى هذا جاء هذا البناء على أساسين في مبحثين وهما: بناء السنة للمجتمع الحضاري، وبناء السنة للعلوم.

المبحث الأول: بناء السنة للمجتمع الحضاري

ويشمل هذا البناء: الإنسان، والأسرة، والمجتمع، لأن الإنسان هو الذي يبني الأسرة، والأسرة نواة المجتمع، فوجود هذه الصلة بين الثلاث توجهت عناية الإسلام لها كلها، وسأتناول بإيجاز بناء السنة لها تطبيقاً لمبادئ القرآن الكريم العامة.

أولاً: بناء السنة للإنسان

الإنسان هو اللبنة الأولى للبناء الاجتماعي للبشرية كلها، لهذا توجهت عناية الإسلام لهذا الإنسان ووضعت له منهجاً لصياغته صياغة تمكنه من أداء واجباته والاستمتاع بحقوقه.

فالإنسان لا يتفاعل مع الحياة إلا بعد تحديد مكانته على الأرض والكون، وهذا ما عملت عليه ثوابت الإسلام قرآناً وسنة، عقيدة وشرعية، وهو ما عجز عنه الفلاسفة السابقون ومنهم أرسطو، فبعد أن قال (إنه مدني بالطبع) عرفه بأنه

^١ البوطي، محمد سعيد رمضان. منهج الحضارة. ص ١٢-١٣.

(حيوان ناطق)، ثم وصفه بأنه حيوان اجتماعي تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع" كما قالها علماء محدثون، وأقوالهم لا تختلف كثيراً عما قال أرسطو.^١ وقد حددت السنة النبوية -تبعاً للقرآن- أسساً عامة للسلوك الإنساني الاجتماعي وإمكانية أن يتدرج هذا السلوك ويترقى كلما تمسك الإنسان بالقيم الخلقية التي جاء بها الإسلام وجاءت تطبيقاً حياً في السنة النبوية، وقد حددت النصوص السنية كذلك العلاقات الاجتماعية التي تلائم الإنسان وتصلحه وتصلح به، وتحقق سعادة الدنيا والآخرة.

وقد جاءت التوجيهات النبوية نموذجاً متكاملماً قادراً على تكوين الإنسان الاجتماعي الذي يستوعب بهذه الشريعة كل مجالات الحياة الإنسانية ويصوغها وفق ما في هذا الدين الخاتم من قيم إنسانية صالحة لكل زمان ومكان وجاءت هذه الصياغة من السنة للإنسان الصالح فكرياً وعملياً وأخلاقياً من عدة وجوه:

١. إنه مخلوق كرمه الله وفضله على جميع المخلوقات ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الإسراء: ٧٠. وجاءت تطبيقات السنة وتفصيلاتها في تكريم الإنسان بإعلان حريته وحقوقه وتحويل الأوامر إليه إلى واقع بتكريمه بالمساواة والعدل وتحريم كل ما يمس حريته وكرامته حتى بعد موته فقد حث الرسول ﷺ على التعجيل بدفن الميت حتى قيل "إكرام الميت دفنه"^٢، وجعل اتباع الجنازة من حق المسلم على المسلم، ومن أقواله كذلك: «اذكروا محاسن موتاكم»^٣ كما أمر بحسن معاملة الأسير والعبد وغيره.

^١ راجع: علي عبد الحليم محمود، التراجع الحضاري، ص ٩٧-٩٨.

^٢ ورد في كشف الخفاء، ح(٥٠٤) ج ١ ص ١٩١. والمنائي في فيض القدير ج ١ ص ٣١٤. والظاهر أنه ليس بجديد بل من الحكم. وهناك أحاديث بمعناه في التعجيل بدفن الميت، كقوله: "اسرعوا بالجنازة"، متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الجنائز. باب السرعة في الجنازة. (١٢٠٥٢). ج ١ ص ٤٤٢. ومسلم (٩٤٤) ج ٢ ص ٦٥٢.

^٣ أخرجه ابن حبان في صحيحه. ج ٧ ص ٢٩٠. والحاكم في المستدرک (١٤٢١). ج ١ ص ٥٤٢. وسنن الترمذي. كتاب الجنائز. (١٠١٩). ج ٣ ص ٣٣٩. وأبو داود. في باب النهي عن سب الموتى. (٤٩٠٠). ج ٤ ص ٢٧٥.

٢. عدم مسؤولية الإنسان قبل أن تصله الدعوة فمن حقه أن يدعى إلى عبادة الله وإتباع منهجه في الحياة وإلا فلا مؤاخذه عليه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء: ١٥، ومن السنة قول الرسول ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^١، وجاء النص عن رسول الله ﷺ: «أربعة يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام ولم أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواعيقهم ليطيعه، فيرسل إليهم أن أدخلوا النار، قال فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»^٢، والشواهد كثيرة على هذا الأصل-وهو عدم المؤاخذه قبل الإنذار- الذي أكدته كثير من علماء المسلمين كالشاطبي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم.^٣

٣. الإنسان مسئول أمام الله عن نفسه فيما يقول ويفعل وينوي ولا يعاقب على خطيئة غيره لقوله تعالى ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء: ١٥، وجاءت الأمثلة النبوية تطبيقاً لذلك فقد كان عبد الله ابن أبي سلول من الصحابة المقربين ولم يؤاخذه الرسول بنفاق أبيه ولدينا في قصة إسلام عكرمة ابن أبي جهل يوم فتح مكة -والذي كان أبوه من ألد أعداء الرسول ﷺ- مثلاً رائعاً حيث استقبله الرسول ﷺ وقبل إسلامه.

^١ أخرجه مسلم في كتاب الإيمان . باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ح (٢٤٠). ج ١ ص ١٣٤.

^٢ أخرجه أحمد في المسند ج ٤ ص ٢٤. والهيتمي في مجمع الزوائد ج ٧ ص ٢١٥-٢١٧. والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ٣ ص ٤١٨. ٤١٩ برقم (١٤٣٤).

^٣ أنظر أقوال هؤلاء العلماء : عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف. (١٤١٥هـ) نواقض الإيمان القولية والعملية . دار الوطن: الرياض. ص ٥٥-٥٦.

٤. لا يكلف الإنسان فوق طاقته، قال الرسول ﷺ: «كل ميسر لما خلق له»^١، وقد نهي الرسول عن التكلف في العبادات وغيرها مما لا تحتمله القدرة البشرية، ففي الحديث عن أنس أن النبي ﷺ دخل المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: «ما هذا؟» قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت فقال النبي ﷺ: «لا، حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد»^٢ كما أمر الرسول كذلك من نذر أن يحج ماشياً أن يركب ويتم حجه^٣، كما سن الرخص للمريض والمسافر والكبير.

٥. أن الجزاء من جنس العمل خيراً أو شراً ومطلوب من الإنسان أن يفكر ويتدبر لأن الإسلام جاء لاحترام العقل الإنساني فحرم اللجوء إلى الكهان ومن غيرهم من مدعي النبوة فلا سلطان إلا لشرع الله، ويؤكد ذلك قول الرسول ﷺ: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد بن عبد الله ﷺ»^٤.

٦. أن البشر كلهم من أصل واحد من آدم وحواء وأن للإنسان إرادة فاعلة حرة وهو مخير بين عمل الخير فيثاب، وبين عمل الشر فيعاقب.

٧. التمسك بالأخلاق النابعة من العقيدة فيما أمر به ونهي عنه. والتوجيهات النبوية لبناء الإنسان أكثر من أن تحصى فهي تأمر بالعمل الصالح وفعل الخيرات ونبد العمل الفاسد وكل ما هو شر وتطبيق العدل بكل معانيه كالصدق والإحسان

^١ البخاري. كتاب التوحيد. باب قوله تعالى " ولقد يسرنا القرآن للذكر " القمر. ح(٧١١٢، ٧١١٣). ج ٦ ص ٢٧٤٤، ٢٧٤٥. ومسلم. كتاب القدر . باب كيفية الخلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ح (٢٦٤٩). ج ٤ ص ٢٠٤١. والترمذي ج ٥ ص ٢٨٩. وأبو داود ج ٤ ص ٢٢٨. ومسند أحمد ج ١ ص ٥. ج ٣ ص ٣٠٤. ج ٤ ص ٤٣١.

^٢ رواه البخاري في كتاب الطهارة باب ما يكره من التشدد في العبادة. (١٠٩٩). ج ١ ص ٣٨٦. والبيهقي في السنن الكبرى ج ٣ ص ١٨.

^٣ انظر هذه الأحاديث في الطبراني في الأوسط ج ٥ ص ١٢٩. والإمام أحمد ج ٣ ص ٢٧١. ج ٤ ص ٤٢٩. ومجمع الزوائد ج ٤ ص ١٨٩.

^٤ رواه الحاكم في المستدرک ج ١ ص ٤٩. وقال: " هذا حديث صحيح على شرطهما ". والهيثم في مجمع الزوائد ج ٥ ص ١١٨. والبيهقي في السنن الكبرى. ج ٨ ص ١٣٥-١٣٦. ومسند أحمد ج ٢ ص ٤٢٩.

والرحمة والكرم والاعتدال والتواضع. ومن ذلك حين طلب منه أحد الصحابة قال أوصني قال لا تغضب^١، وكان يخفف الصلاة رحمة بالأم المصلية حين يبكي طفلها كما كان يمسح على رأس اليتيم وينهى عن الكذب فيقول: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو له مصدق وأنت له كاذب»^٢. ونهى عن الكذب حتى على الأطفال الصغار لأن فيه إساءة لتربيتهم ووصى بالجار بعشرات الأحاديث منها «والله لا يؤمن قيل من يا رسول الله قال من لم يأمن جاره بوائقه»^٣. وكان يحث على التواضع ويحرم الكبر فيقول: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^٤ وكان يزور المريض ويلبي الدعوة وجعل ذلك من حق المسلم على المسلم. وضرب أمثلة رائعة في السماحة منها عفوه عمن أساء يوم فتح مكة فقال لأهل قريش اذهبوا فأنتم الطلقاء^٥.

٨. العبادة وفق ما جاء به الشرع من قبل الرسول ﷺ وإنها إصلاح للفرد دنيا وآخرة وأن هذه العبادات تدعم الأخلاق وتزكيها. فقد قال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^٦. فالعبادات كلها تساعد في بناء شخصية المؤمن وتربيته على الخصال الحميدة ففي الصوم معان سامية فهي قمة الأخلاق وورقي النفس فوق الشهوات كما أنها توجه الإنسان إلى

^١ روى الحديث الترمذي في كتاب البر والصلة . باب ما جاء في كثرة الغضب ج ٤ ص ٣٧١. عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: ثم علمني شيئاً ولا تكثر علي لعلني أعيه قال: لا تغضب. فردد ذلك مراراً وكل ذلك يقول : لا تغضب. كما رواه أحمد في مسنده ج ٢ ص ١٧٥ . ٣٦٢ ، ٤٦٦ .

^٢ رواه أبو داود. باب في المعارض. ج ٤ ص ٢٩٣. والبخاري في الأدب المفرد (٣٩٣). ج ١ ص ١٤٢. والبيهقي في السنن الكبرى. ج ١٠ ص ١٩٩. والميثمي في مجمع الزوائد . باب كبرت خيانة... ج ٨ ص ٩٨.

^٣ رواه الحاكم في المستدرک. (٧٢٩٩). ج ٤ ص ١٨٢. ومسند أحمد. ج ٢ ص ٣٧٢. ج ٣ ص ١٥٤. ج ٥ ص ٣١.

^٤ رواه مسلم. كتاب الإيمان. باب تحريم الكبر ويانه (٩١). ج ١ ص ٩٣. وابن حبان في صحيحه. ج ٣ ص ٥٠. ج ١٢ ص ٢٨٠. والترمذي. ج ٤ ص ٣٦١. وابن ماجه. ج ١ ص ٢٢. والإمام أحمد ج ١ ص ٤١٦.

^٥ البيهقي في السنن الكبرى ج ٩ ص ١١٨. وفي تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٦١. وابن هشام. السيرة النبوية ج ٥ ص ٧٤.

^٦ رواه ابن ماجه في كتاب الصيام. باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم. (١٦٨٩) ج ١ ص ٥٣٩. والبيهقي (٨٠٩٥). ج ٤ ص ٢٧٠.

إمكانية التغير إلى الأحسن والحاج تسمو أخلاقه في كل شعيرة يقوم بها في الحج والزكاة طهارة للنفس والمال من الجشع وتحقق التكافل الاجتماعي، أما الصلاة فأهم ما فيها دوام الصلة بالله سبحانه وتعالى ليكون على يقظة تامة تمنعه من الزلل والخطأ.

٩. كما شرع الله نوافل من جنس العبادات والفرائض يزداد المسلم بها قرب من الله ويخطو بها خطوات تدنيه منه كالذكر والتسبيح ونوافل الصلاة والصيام والصدقة والعمرة وغيرها.

١٠. والإنسان تحكمه قوانين عادلة في التعامل مع غيره سواء المسلمين أو غير المسلمين من أهل الكتاب أو غيرهم على أسس الكرامة الإنسانية للجميع وهذه القوانين لا تفرق بين ألوان الناس وكل من يعيش في مجتمع مسلم له حق الحرية الدينية تحت شعار: (لا إكراه في الدين) وهو مأمور بالعدل وعدم إيقاع الظلم أو التسبب في ضرر كما أن على الدولة أن تأمنه وتسالمه وتحميه.

ثانياً: بناء السنة للأسرة

أقام الإسلام بناء اجتماعياً مركزه الأسرة واعتبرها لبنة هذا البناء وقد اعتنت نصوص السنة قولية وعملية بنظام الأسرة ووضعت لها القواعد المحكمة التي تكفل لها البقاء والاستمرار بمحبة وألفة بين أفرادها. ومن هذه الأسس ما يأتي:

١. أن يحسن الرجل اختيار زوجته وأم أبنائه وفق المعايير الإسلامية التي حددها قوله ﷺ «تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربيت يداك»^١.

٢. أن يحسن أولياء المرأة اختيار الزوج لها والمعيار مثل ما في اختيار الزوجة وقال ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في

^١ البخاري، صحيحه. كتاب النكاح. باب الأكفاء في الدين (٤٨٠٢). ج ٥ ص ١٩٥٨؛ مسلم في كتاب الرضاع. باب استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦)؛ والنسائي ج ٣ ص ٢٩٦؛ ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٧؛ مسند أحمد ج ٢ ص ٤٢٨.

الأرض وفساد كبير»^١.

٣. اعتبار الزوجة سكن للزوج تجمعهم المودة والرحمة قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»^٢.

٤. أوجب النفقة على الرجل في حدود سعته وإمكانياته وجعل له القوامة لأنه أوجب عليه النفقة على الأسرة، والقوامة تكليف لإدارة شؤون الأسرة وليست تسلطاً ولا تكريماً.

٥. أعطى للرجل حق الطلاق إذا ما كان ما يستوجب الطلاق وتعدرت وسائل الإصلاح وجعل له شوطاً لا تضار فيه الزوجة كما حدد له قوانين تكفل الرجعة بعد الطلقة الأولى كفرصة للمراجعة وأعطى المرأة حق الخلع عند استحالة استمرار الزوجية لوجود عيوب في الزوج لا تتحملها الزوجة مادية أو معنوية.

٦. القوانين التي تتصل بحقوق وواجبات كلا الزوجين نحو الآخر وتأثير من قصر بواجباته وجعل الإسلام الأسرة محضناً لرعاية الأبناء والأجيال البارة بالديها. وقد عد الرسول ﷺ العقوق من الكبائر بعد الشرك حين قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الشرك بالله وعقوق الوالدين»^٣ كما جعل البر للوالدين كفارة للذنوب.

٧. كما أحاط الإسلام الأسرة برعاية إضافية هي ذوي الأرحام كالجدود والجدات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، وحقوق متبادلة. وفي السنة تبعاً للقرآن تشريعات دقيقة في الولاية والنفقة ولمن تجب وشروطها وآدابها بما لا يتسع

^١ رواه الترمذي في سننه. كتاب النكاح. باب إذا جاءكم من ترضون دينه فوزجوه (١٠٨٤، ١٠٨٥). ج ٣ ص ٣٩٤-٣٩٥. والطبراني في الأوسط (٧٠٧٤). ج ٧ ص ١٣١. وفي المعجم الكبير ج ٢٢ ص ٢٩٩. وسنن البيهقي ج ٧ ص ٨٢.

^٢ رواه الترمذي في كتاب المناقب. باب فضل عائشة (٣٨٩٥). ج ٥ ص ٧٠٩. والدارمي ج ٢ ص ٢١٢. وابن ماجه. ج ١ ص ٦٣٦. وصحيح ابن حبان ج ٩ ص ٤٩١.

^٣ رواه البخاري. كتاب الأدب. باب عقوق الوالدين من (٥٦٣٢). ج ٥ ص ٢٢٣٠. وكتاب استئابة المرتدين. باب إثم من أشرك بالله (٦٥٢١). ج ٦ ص ٢٥-٣٥. ومسلم في كتاب الإيمان. باب بيان الكبائر وأكبرها. (٨٨). ج ١ ص ٩١-٩٢. والترمذي. ج ٣ ص ٥١٣. ج ٥ ص ٢٣٥-٢٣٦. وأبي داود ج ٣ ص ١١٥. والنسائي ج ٢ ص ٢٨٩. ج ٦ ص ٣٢٢. والحاكم ج ١ ص ١٢٧. وأحمد ج ٣ ص ١٣١. ٤٩٥.

المجال لذكره. وكل ما ذكرنا تأمين للأسرة في حاضرها، كما أمنت المستقبل للأسرة وخصوصاً عند فقد العائل حقيقة أو حكماً بحلول: الزكاة والتكافل الاجتماعي والوصية والميراث.

٨. كل تلك القوانين تسير وفق سياج متين من الأخلاق عند أداء الواجبات وخصوصاً الواجبات نحو الأصول والفروع ونحو الأقارب والأرحام ونحو الجيران ونحو الأراامل والأيتام ونحو المجتمع وخارج الوطن نحو الأسرة المسلمة ونحو الأسرة لأديان أخرى تعيش الأسر المسلمة.

٩. كل ذلك أسس حضارية لقيام الأسرة والمحافظة على حاضرها ومستقبلها علّمت العالم والحضارات الأخرى فيما غاب عنها لأنها ربانية المنهج الذي أحاطها بالشمولية والواقعية.

١٠. هذه الأسس تدرج تحتها جزئيات كثيرة في المسؤولية الزوجية والتبني وحرمة النسب لغير الأب وعدم تخلي أحد الزوجين عن مسؤوليته وأمانته، وعدم استغلال الزوج القوامة للتسلط على حقوق زوجته المالية مثلاً كما جعل للأئمة مكانتها. هذا إذا ما راعينا أن هذه الأسس جاءت بها الشريعة المحمدية قبل ١٥٠٠ سنة فقامت عليها حضارة فاقت كل الحضارات ولم تصل القوانين الوضعية بعد كل هذه المدة إلى ما وصلت إليه هذه التشريعات في العظمة والصلاح.

ثالثاً: بناء السنة للمجتمع

إن الأسس التي وضعتها السنة لبناء المجتمع تدعمها أنظمة كثيرة متنوعة وشاملة لكل جوانب الحياة، ولها ميزتان:

أولهما: أنها قائمة على أساس الوحي، وفصلتها الشريعة الإسلامية.

وثانيها: أنها اعتمدت المصلحة الإنسانية العليا الصالحة لكل زمان ومكان، وتنادي إلى التعارف بدل الصراع، ولذلك فهي لا تسمح بالظلم حتى في حالة

الانتصار وامتلاك السلطة ولا يستغل فيها الضعيف، ولا تسعى إلى إضعاف الدول الأخرى كما تفعل الحضارات الأخرى.

ومن أهم هذه الأسس:

١. الأسس الإيمانية: وهذه الأسس تقوم على الإيمان الكامل بكل أركان الإيمان المعروفة، كما تقوم على قواعد ومسلمات لا يصح الإيمان إلا بها ومن ذلك: «كون الإنسان خليفة الله في الأرض، وهو قادر على ذلك بما منحه الله من عقل وفطرة سليمة، وبما أمدّه من رسل لإعانة العقل والفطرة إلى الطريق الصحيح، والاستخلاف شرف للإنسان بأن يعمل بطاقاته ووفق متطلباته من دون أن يتجاوز إلى حدود المستخلف.

«ومن ركائز الإيمان أن الله سخر له الدنيا وما حولها من نعم للإنسان، فهي دار انتفاع، بما حوته من طيبات وزينة حلال لا يجوز تحريمها ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف: ٣٢، ولكن ضمن شروط الاعتدال (لا إسراف ولا تقتير) وكل هذه النعم وسيلة للتقرب إلى الله وليست هدفاً في ذاتها.

«أنه محتاج إلى منهج إلهي ليهتدي في ضوئه لخير الدنيا والآخرة، وأن يوقن بكل ما جاءت به الرسالة.

وعلى هذا جاءت الحضارة الإسلامية أول حضارة تقوم على الوحدانية ونبتذ الشرك، وعبادة الله وحده، والاعتقاد بأنه المالك المتصرف والمأنح المعز المذل، وكل شيء تحت قبضته، هذا الاعتقاد كان له الأثر الكبير في رفع مستوى الإنسان وتحرره من الطواغيت، وصححت العلاقة بين البشر رئيسهم ومرؤسيهم، وجعلت التوجه للخالق وحده ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٤، فطبعت هذه الحضارة بطابع الخلو من الوثنية بجميع مظاهرها، كما أثر في انتقائها لما يترجم من

الآخرين ونقله، كما أثر على إنتاجها الفني بأن ابتعدت عن فن النحت والتصوير والتماثيل التي تمجّد العظماء والذي تميزت به الحضارات القديمة والحديثة وبرزت في مجال النقش حتى تميزت الزخرفة الإسلامية.

كما صبغت وحدة العقيدة كل الأسس والنظم والفنون التي جاءت بها الحضارة الإسلامية - لأنها تشترك في وحدة التشريع والنظم والأهداف - بأسلوب واحد رغم تنوعه.^١

٢. الأسس الإنسانية العالمية: وضع الإسلام - وبخاصة نصوص السنة - أسساً لبناء المجتمع العالمي ولم يقتصر على الحدود المحلية أو الإقليمية الضيقة، أو العرقية، بل يتسع الأسرة الإنسانية كلها في كل زمان ومكان حيث نرى الخطابات القرآنية موجهة للجميع ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الأعراف: ١٥٨، وقول الرسول ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي ولا أقول فخرًا: بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود....»^٢ وفي رواية: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»^٣، وما دامت الرسالة للناس كافة، فالمجتمع المسلم يرفض العصبية للأجناس والأعراق، بل ينظر إلى الكل نظرة عادلة رحيمة، قال ﷺ: «من قاتل تحت راية عمية يدعو إلى عصبية أو يغضب

^١ راجع السباعي مصطفى. من روائع حضارتنا. ص ٢٨-٢٩.

^٢ رواه الإمام أحمد. ج ١ ص ٣٠١. ج ٣ ص ٣٠٤. ج ٤ ص ٤٠٦. ٤١٦. وفي سنن الدارمي. كتاب الجهاد. باب الغنيمة لا تخل لأحد قبلنا (٤٢٦٧). ج ٢ ص ٢٩٥. وصحيح ابن حبان ج ٤ ص ٣٧٥. والمستدرک. ج ٢ ص ٤٦٠. والطبراني في الأوسط ج ٥ ص ٣٠. ومعناه في البخاري (بعثت إلى الناس عامة) في كتاب الصلاة باب قول النبي: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً (٤٢٧). ج ١ ص ١٦٨. و (٣٢٨). ج ١ ص ١٢٨.

^٣ رواه مسلم. في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣). ج ١ ص ٣٧١. وصحيح ابن حبان. ج ٦ ص ٨٧. ج ١٤ ص ٣١٨. الترمذي. في كتاب السير باب ما جاء في الغنيمة ج ٤ ص ١٢٣. وأحمد ج ٢ ص ٤١١.

لعصية فقتل فقتلته جاهلية»^١، وروي أن امرأة من الشام يقال لها فسييلة قالت: «سمعت أبي يقول: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أمن العصية أن يحب الرجل قومه؟ قال: لا ولكن من العصية أن يعين الرجل قومه على الظلم»^٢، وبذلك تتجلى نظرة الإسلام إلى البشرية كلها بأن التمييز هو بالإيمان والتقوى وينظر إلى غير المسلمين على أنهم أمة دعوة ولكن من غير إكراه، كما أنه ليس في نصوص الشريعة امتياز لمسلم لمجرد انتمائه للإسلام إذ لا قيمة له إلا أن يكون معه عمل صالح، فلا يوجد في أهل الإسلام من يدعي أن المسلمين هم "شعب الله المختار" أو هم "أبناء الله وأحباؤه" لأن الأساس هو: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣.^٣

ولو نظرت إلى التنظيم الاجتماعي للرسول ﷺ في المدينة بعد الهجرة لتعجب من بنود الوثيقة النبوية التي نظمت العلاقات بين أطراف المجتمع المدني بطريقة تحفظ للجميع حقوقهم وتحدد واجباتهم، وكان قبل ذلك قد آخى بين المهاجرين والأنصار، وترجع أهمية هذه الوثيقة إلى اعتبارين:

أولهما: ما لها من أهمية في فهم طبيعة الدولة الإسلامية الأولى وكيف أدار النبي ﷺ شؤنها.

ثانيهما: القدوة المستفادة من سياسة النبي ﷺ وفائدتها البالغة في تنظيم أي دولة معاصرة على أساس إسلامي.

والراجع أن الوثيقة في الأصل وثيقتان جمع المؤرخون بينهما، إحداهما: تتناول موادة الرسول ليهود، والثانية: تنظم علاقات المسلمين بعضهم ببعض، وتحدد

^١ هو جزء من حديث رواه مسلم في كتاب الفتن. باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ج ٣ ص ١٤٧٦. وفي كتاب التفسير (١٨٤٨). وصحيح ابن حبان ج ١٠ ص ٤٤١. والنسائي كتاب المحاربة باب قتال المسلم (٣٥٧٩) ج ٢ ص ٣١٤-٣١٥. وسنن البيهقي الكبير. ج ٨ ص ١٥٦.

^٢ رواه ابن ماجه. كتاب الفتن. باب العصية. (٣٩٤٩). ج ٢ ص ١٣٠٢. والطبراني في المعجم الكبير. ج ٢٢ ص ٣٨٣. والبيهقي في شعب الإيمان ج ٦ ص ١٢٢. والهيتمي في مجمع الزوائد. كتاب قتال أهل البغي. باب العصية. ج ٦ ص ٢٤٤.

^٣ راجع: عبد الحليم محمود. ص ١٣٨.

واجباتهم وحقوقهم^١.

وبالجمله فقد أحلت الوثيقة الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية، فعبرت عن المسلمين بأنهم أمة من دون الناس.

٣. الأسس الأخلاقية: فالجتمتع الحضاري المسلم تسوده القيم الخلقية الفاضلة التي قُبئى أرقى مستوى اجتماعي يعيش فيه الإنسان، والالتزام الأخلاقي حماية له من الانحراف واتباع الهوى ونزغات الشيطان، وبدونه فلا استقرار ولا أمن، ولا يوجد حل للمعضلات والمشاكل الاجتماعية إلا بسيادة القيم الأخلاقية، والسنة النبوية حافلة بالدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق والتخلي عن الرذائل منها، وسيرة الرسول وسلوكه فضلاً عن أقواله نموذجاً حث القرآن على الاقتداء به، وقد وصفته عائشة «كان خلقه القرآن»^٢ فقد عرف بالصادق الأمين حتى قبل البعثة، وحثت أقواله على الصدق والصبر والحلم والوفاء وغيرها بنصوص أكثر من أن تحصى منها قوله: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»^٣ وعندما سأله أحد الصحابة: أوصني، قال: «لا تغضب»^٤، كما ضرب مثلاً أعلى في السماحة لمن أساء، وبذلك استطاع الرسول يربي جيلاً من الصحابة اجتذبوا الناس إلى الإسلام بأخلاقهم، وللرسول ﷺ

^١ انظر: أكرم العمري. السيرة النبوية الصحيحة ج ١ ص ٢٧٦-٢٨٥. ومحمد أنحزون. منهج النبي في الدعوة. ص ٢٩٩-٣٠٠.

^٢ رواه البخاري في الأدب المفرد. ج ١ ص ١١٥. وفي مسند الإمام أحمد. ج ٦ ص ٩١، ١٦٣، ٢١٦. والبيهقي في شعب الإيمان ج ٢ ص ١٥٤. وابن حجر في فتح الباري. ج ٦ ص ٧٥.

^٣ رواه البخاري في كتاب المناقب. باب صفة النبي ح (٣٣٦٦) ج ٣ ص ١٣٠٥. وباب مناقب عبد الله بن مسعود (٣٥٤٣) وفيه " .. إن من أحبكم إلي أحسنكم .. " ج ٣ ص ١٣٧٢. وفي كتاب الأدب. باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٥٦٨٨) " .. إن خياركم أحسنكم .. " ج ٥ ص ٢٢٤٥. وفي صحيح ابن حبان. ج ١٤ ص ٣٥٤. والمستدرک ج ٤ ص ٩٤، ٩٦. وسنن الترمذي. كتاب البر والصلة . باب ما جاء في معالي الأخلاق. (٢٠١٨). ج ٤ ص ٣٤٩، ٣٧٠. وباب ما جاء في الصدق والكذب (١٩٧٥). ومسند أحمد. ج ٢ ص ١٦١، ١٩٣. ج ١ ص ٢١٧، ٣٦٩، ٣١٨. ج ٤ ص ١٩٣، ١٩٤.

^٤ رواه البخاري في صحيحه. كتاب الأدب. باب الحذر من الغضب. ح (٥٧٦٥). ج ٥ ص ٢٢٦٧. وابن حبان في باب الاستماع للمكروه وسوء الظن والغضب. ح (٥٦٨٩). ج ١٢ ص ٥٠٢. والترمذي. كتاب البر والصلة. باب ما جاء في كثرة الغضب. ح (٢٠٢٠). ج ٤ ص ٣٧١. وأحمد في المسند. ج ٢ ص ١٧٥، ٣٦٢، ٤٠٦. ج ٣ ص ٤٨٤. ج ٥ ص ٣٧٣، ٣٧٢، ٣٧٠، ٣٤٤.

في علم النفس التربوي والتعامل الاجتماعي أحاديث كثيرة، مثال ذلك قوله: «تصافحوا يذهب الغل (الحقد) وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء»^١ و: «إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه إياه»^٢، وهو يريد تغيير النفوس لأنه أسرع طريق للتغيير الاجتماعي، ويعبر عن مدى تأثير الأفراد على بعضهم داخل المجتمع.^٣، والتغيير الاجتماعي لا بد أن يبدأ من النفوس كما قال تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ (الرعد: ١١)، والأخلاق التي دعا إليها الرسول ﷺ داخلية في كل الميادين، ولا تقتصر على وقت السلم، بل أكدت التعاليم النبوية على حسن المعاملة في الحرب كالرحمة بالنساء والأطفال والشيوخ، والتسامح مع المغلوبين، ووضع دستوراً خاصاً ومتميزاً بالحرب قائم على الأخلاق شملت حتى المحافظة على البيئة وعدم الإضرار بها في الحرب، وقد انتهج القادة الفاتحين نهج النبي ﷺ بعده ففتحوا البلاد وقلوب أهلها للإسلام، حتى وجدنا إشارات من الأعداء أنفسهم على نبل القادة المسلمين وخصوصاً صلاح الدين الأيوبي، حيث وجدوا عندهم الرحمة التي يفتقدونها حين تكون المواجهة فيما بين طوائفهم المختلفة.

٤. الأسس الاقتصادية: وضع الإسلام أسساً في مفهوم المال بأنه ملك لله والإنسان مستخلف مؤتمن عليه، ولذلك حدد مبادئ لتداول المال والمنفعة بما يضمن العدل ويأبى الظلم ومن هذه الأسس:

« كل إنسان مطالب بالعمل وتجويده وأن يكسب بعمله.
« له الحرية في التملك من المال المشروع ويؤدي حق الله فيه.

^١ الإمام مالك. الموطأ. كتاب حسن الخلق. باب ما جاء في المهاجرة. ح (١٦١٧). ج ٢ ص ٩٠٨. وفي معناه في صحيح مسلم. ح (٥٤). كتاب الإيمان. باب بيان لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. والبخاري في الأدب المفرد. ج ١ ص ٢٠٨، ٣٤٠. والترمذي ج ٤ ص ٦٦٤. ج ٥ ص ٥٢. وأبو داود. ج ٤ ص ٣٥٠. وابن ماجه. ج ١ ص ٢٦. والإمام أحمد ج ١ ص ١٦٤، ٣٩١.

^٢ الإمام أحمد. المسند. ج ٤ ص ١٣٠. وأبو داود (٥١٤٢). والترمذي (٢٣٩٢) وقال: حديث حسن صحيح. وصحيح ابن حبان. ج ٢ ص ٣٣٠. والمستدرک. (٧٣٢٢). ج ٤ ص ١٨٩. والنسائي. (١٠٠٣٣). ج ٦ ص ٥٩.

^٣ انظر قاسم شهاب صباح. علم النفس التربوي. ص ٦٨، ٧٧.

« وضع آداب وشروط للتعامل، كما وضع على بيت المال ما يحدد تمويله وإنفاقه.

« الزكاة عند بلوغ النصاب بشروطها.

« الميراث والوصية

« تحريم الربا والاحتكار والغش وترويج البيع بالحلف والكذب، وأكل أموال

الناس بالباطل، ووضع الأموال بيد السفهاء، وتحريم الإسراف والبخل.

كل ذلك جاء بأطر عامة في القرآن ولكن السنة النبوية فصلت فيه تفصيلاً دقيقاً مما نجده في مجلدات كتب الفقه.

٥. أسس التكافل : جعلت التعاليم النبوية المجتمع المسلم متميزاً بأن تلتقي فيه

مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة، صغيرة كانت أم كبيرة، مع التوفيق بين تلك

المصالح بلا تعارض، فلا صراع طبقي ولا استغلال ولا احتكار، بل مودة ووثام

وأخوة ووصاية بالفقير والمسكين واليتيم وابن السبيل والمدين، من باب التعاون

على البر والتقوى، وهو واجب على كل أحد بما يستطيع، وهو يتناول كل جوانب

الحياة، فهو تكافل مادي، ومعنوي، وغير ذلك.

٦. الأسس السياسية: فقد وضعت الشريعة أسس للسياسة العامة التي تكفل

حقوق المسلم السياسية وأداء واجباته، بأطر عامة جوهرية ، علماً أن النظم

السياسية في الحضارة الإسلامية ليست من الثوابت، بل من المتغيرات، ومن أهم

النظم العامة:

« تحقيق العدل والأمن والطمأنينة لكل إنسان.

« الحريات التي لا تتعارض مع الآخرين ، كحق التعبير ، والنصح للحاكم.

« المساواة في الحقوق والواجبات، ومحاسبة المقصر.

« شروط من يلي أمر المسلمين.

٧. الأسس الجهادية: والجهاد أنواع: جهاد النفس والهوى، وجهاد الشيطان ووساوسه، والعدو والإعداد له، وهدفه إعلاء كلمة الله، كما أنه يحول بين الأمة وبين أن تذلل أو تستضعف، وهو استمرار للحياة وفريضة ماضية إلى يوم القيامة تتمكن فيه الأمة من أداء وظائفها كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد حذر الرسول ﷺ من التهاون في شأنه فقال: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا يترعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»^١.

المبحث الثاني: بناء السنة للعلوم

إن موقف الإسلام من العلم واضح حيث دعا في أول آية إلى العلم مشيراً إلى ذلك باستعمال أدواته وهي القراءة والكتابة التي عبر عنها بالقلم وهي مفتاح العلم، وفيها دلالة على الاهتمام بأمر العلم علاوة على النصوص الكثيرة التي تدعو للتأمل والتفكير، كما جعلت النصوص العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، أما تفاصيل العلم فهي من المتغيرات وليس من الثوابت.

وقد تحقق البناء العلمي في ثلاثة جوانب:

الأول: الدعوة للعلم وتوظيفه

وجاءت هذه الدعوة في نصوص السنة على ثلاثة وجوه:

أ. في فضل العلم ومكانته: منها قول الرسول ﷺ: «أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه» وقوله: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في

^١ رواه أبو داود . باب في النهي عن العينة. (٣٤٦٢). ج ٣ ص ٢٧٤. والبيهقي في السنن الكبرى ج ٥ ص ٣١٦. كما رواه ابن كثير في تفسيره ج ٢ ص ٣٤٤. والقرطبي في تفسيره ج ٢ ص ٥٩. ج ٣ ص ٣٦٠. ج ١٣ ص ١٢٥.

السماء والأرض حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العلم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^١.

ب. في وجوب العلم وأهميته: منها قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^٢، وقال: «إذا أتى علي يوم لا أزدد فيه علماً يقربني إلى الله عز وجل فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم»^٣.

ج. في توظيف العلم: منها قوله ﷺ: «من علم علماً فله أجر من عمل به لا ينقص ذلك من أجر العامل»^٤، وقوله: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم»^٥ وقوله: «من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو ليباهي به العلماء أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار»^٦.

ثانياً: آثار الدعوة للعلم ومظاهرها

وقد كان لهذه التوجيهات النبوية أثر في التقدم العلمي للمسلمين وبناء حضارة عريقة نجد مظاهرها في الأمور التالية:

^١ رواه ابن ماجه في باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣). ج ١ ص ٨١.

^٢ رواه ابن ماجه عن أنس. باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٤). ج ١ ص ٨١. والهيتمي. مجمع الزوائد. كتاب العلم. باب في طلب العلم ج ١ ص ١١٩، ١٢٠. والطبراني في الأوسط ج ١ ص ٨. ج ٢ ص ٢٨٩. والصغير. ج ١ ص ٣٦.

^٣ رواه العجلوني. كشف الخفا ج ١ ص ٧٧، (٣٧٩) و (١٩٩٤). ج ٢ ص ١٦٥. وفي حلية الأولياء ج ٨ ص ١٨٨. وفي فض القدير. ج ١ ص ٢٤٠. والهيتمي. مجمع الزوائد. ج ١ ص ١٣٦.

^٤ رواه ابن ماجه. باب ثواب معلم الناس. (٢٤٠). ج ١ ص ٨٨. والطبراني في المعجم الكبير. (٤٤٦). ج ٢٠ ص ١٩٨. وفي فيض القدير. ج ٦ ص ١٨٢. والمسند المستخرج على صحيح مسلم. (٤٠). ج ١ ص ٥١.

^٥ رواه ابن ماجه. (٢٤٣). باب ثواب معلم الناس الخير. ج ١ ص ٨٩. وفي فض القدير ج ٢ ص ٣٧. وتعليب الكمال. ج ١٩ ص ٥٩.

^٦ رواه الترمذي في سننه. كتاب العلم. باب ما جاء في ذهاب العلم (٢٦٥٤). ج ٥ ص ٣٢. وفي سنن الدارمي (٣٦٧، ٣٧٣). باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله. ج ١ ص ١١٥.

أ. بناء المساجد ودور العلم: كان أول ما بدأ به الرسول ﷺ عند وصوله إلى المدينة بعد الهجرة هو بناء المسجد للصلاة، ثم بنيت مساجد أخرى في كل مكان للمسلمين، وقد كان للمسجد في العصر النبوي وما بعده وظائف كثيرة غير الصلاة والذكر، فكان يقوم مقام المؤسسات الإدارية والسياسية والتربوية والعسكرية، وقد حذى القادة الفاتحون حذو الرسول ﷺ ببناء المساجد في البلدان التي يفتحونها، وكان أول ما يفعلونه في تخطيط المدن الجديدة هو الاهتمام بالمساجد لتقوم بدورها العبادي والأنشطة الأخرى، وقد كان يلحق بكل مسجد مدرسة ومكتبة، وفي العصور المتقدمة بنيت المراكز العلمية المستقلة عن المساجد، والمكتبات والمدارس، ثم الجامعات، من غير أن يلغى دور المسجد، يقول غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: "والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا مدارس كثيرة... وهذا عدا احتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة... إلخ على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية وكل ما يساعد على البحث العلمي"^١.

ب. اعتماد العمل على العلم بنوعيه الشرعي والديني يضمنها جميعاً ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٤٣، وحذ فيه الاستشارة والاستخارة: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد»^٢، كما جعل درجة العامل فوق منزلة العابد، وربط العمل بالمصلحة العامة وليس الخاصة، والأحاديث النبوية في حب العمل والحث عليه كثيرة تؤكد هذه التطبيقات العملية المعروفة من سيرته ﷺ حتى أنه قال: «لئن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة

^١ للتعرف على هذه المدارس ونظامها ومدرسيها، وزي طلبة العلم والمدرسين راجع: السباعي. من روائع حضارتنا ١٤٥-١٤-٥٤.

^٢ رواه الطبراني في الأوسط . (٦٦٢٧). ج ٦ ص ٣٦٥. وفي الصغير. (٩٨٠). ج ٢ ص ١٧٥. وجمع الزوائد. باب الاستخارة ج ٢ ص ٢٨٠. وفي باب ما جاء في المشاورة. ج ٨ ص ٩٦. وفي مسند الشهاب للقضاء. ج ٢ ص ٧.

حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»^١، وحرّم السؤال على القادر لأنه ذلة لا يرضاها الإسلام للمسلم الذي يراد له أن يكون عزيزاً.

ج. الكتابة والتدوين والترجمة: وهي الأوليات التي يقوم عليها العلم ومن ثم الحضارة، ولا علم بدونها، وهذا ما عمل به الرسول ﷺ بعد توجيه القرآن، فقد شجع على الكتابة وخصوصاً بعد أن أصبح للمسلمين كيان ودولة، وكان يدعو الصحابة لكتابة الوحي النازل عليه حتى بلغ عددهم أربعين كاتباً كما أمر أسرى بدر بتعليم المسلمين الكتابة، وفي الحديث قول الرسول ﷺ للشيء بنت عبد الله حين وجدها عند حفصة: «إلا تعلميها الكتابة كما علمتها رقية النملة»^٢، وروي كذلك أنه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم العبرية لغة اليهود، والفارسية فأتقنها، ثم تعلم السريانية بأمر منه ﷺ كما تعلم العبرية، فأصبح ترجمان رسول الله ﷺ^٣ لأنه كان يرسل الملوك يدعوهم للإسلام.

ثم ما كان من نهضة تدوينية بعد ذلك وفي مقدمتها تدوين الحديث النبوي، وتأليف الكتب ثم الترجمة لما عند الأمم وأهمها كتب الفلسفة اليونانية والكتب العلمية في عصر الرشيد والمأمون، والذي يمثل العصر الذهبي للمسلمين، والعصور الوسطى المظلمة لغيرهم، كما انتشرت المكتبات في مراكز الثقافة الإسلامية وأهمها

^١ البخاري. كتاب الزكاة. باب بيع الحطب والكلاء. ج ٢ ص ٨٣٦.

^٢ رواه أبو داود ح (٣٨٨٧). كتاب رآه. باب ما جاء في الرقي. ج ٤ ص ١١. ومسنّد أحمد. ج ٦ ص ٣٧٢. والنسائي (٧٥٣٤). ج ٤ ص ٣٦٦. والمعجم الكبير ج ٢٤ ص ٣١٣. والمزي في تحفة الأشراف. ج ١١ ص ٣٣٦.

^٣ ذكره البخاري معلقاً في كتاب الأحكام. باب ترجمة الحكام. وفيه " أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود. حتى كتبت للنبي ﷺ كتبه وأقرأته كتبهم". قال ابن حجر: "...وقد وصله البخاري مطولاً في كتاب التاريخ. وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد. قال ابن حجر: مختلف فيه فلا يتجه الحكم بصحة ما ينفرد به بل غايته أن يكون حسناً". وقال: وزاد " فتعلمتها في سبعة عشر يوماً" فتح الباري. ج ١٣ ص ١٩٩. وأخرجه أبو داود في العلم. باب رواية حديث أهل الكتاب (٣٦٤٥). ج ٣ ص ٣١٨. والترمذي. في الأدب. باب في تعليم السريانية (٢٨٥٨) وقال: حسن صحيح. كما أخرجه أحمد وغيره وعنده " إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا علي وينقصوا فتعلم السريانية". انظر: الحاكم في المستدرک. ج ٣ ص ٤٢٢.

بغداد، أما في الأندلس فقد انتشرت المكتبات العامة والخاصة، ففي أسبانيا وحدها كان سبعون مكتبة عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمائة ألف كتاب، منها أربعة وأربعون مجلداً في الفهارس كما روى المؤرخون العرب^١، وقد أكد ذلك المنصفون من غير العرب والمسلمين مثل غوستاف لوبون (الفرنسي) في كتابه المذكور حيث يقول: "والإنسان يقضي العجب من المهمة التي أقدم بها العرب على البحث، وإذا كانت هناك أمم تساوت هي والعرب في ذلك فإنه لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل...".^٢

ثالثاً: العلوم الإسلامية التي أسهمت في الحضارة الإنسانية

ومن أهم العلوم التي برع فيها المسلمون بناءً على التوجيهات النبوية والتي تعد ثمرة للحضارة الإسلامية وساهمت في بناء الحضارة الإنسانية ما يأتي:

١. علم الرياضيات والفلك: وجاء تطور هذا العلم نتيجة لاهتمام الإسلام بأمرين:

أولهما: الاهتمام بالوقت (الزمن)، فقد ربطت العبادات جميعاً بالأوقات فلكل وقت محدد، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ النساء: ١٠٣، فأصبحت هناك مراقبة للوقت واهتمام ما كانوا يعهدونه من قبل، والصيام محدد بشهر معين يقتضي الحساب للشهر ومراقبة فلكية للقمر، والحج مثل ذلك، والزكاة ومعرفة النصاب تحتاج للحساب ومعرفة النسبة وكل ذلك رياضيات، جاءت تفاصيلها في السنة النبوية، هذا بالإضافة إلى الأعياد ومواقيتها.

والآخر: علم الموارث ما هو إلا حسابات ورياضيات، هذه الأمور جعلت الاهتمام يتطور ويتسع البحث في مجاله حتى ظهر علم الجبر عند العرب ثم تطبيقه على

^١ انظر: علي عبد الحليم محمود. التراجع الحضاري. ص ١٦٩.

^٢ غوستاف لوبون. حضارة العرب. نقلاً عن المرجع السابق.

علم الهندسة، فقد ألف محمد بن موسى كتاباً موطئاً له بأمر المأمون في أوائل القرن التاسع الميلادي ومن ترجمته اقتبس الأوريون معارفهم الأولى لهذا العلم بعد زمن طويل.

وفي علم الفلك: هو أول علم اعتني به في بغداد وكانت هناك مراكز فلكية أخرى في الحواضر الإسلامية، كالقاهرة والأندلس ودول المغرب، وقد أدت مدرسة بغداد الفلكية في زمن الرشيد والمأمون (٨١٤-٨٣٣) إلى أعمال مهمة لرصد حركة الشمس وبقية الكواكب، ووضعوا تقاويم لأمكنة الكواكب السيارة، وقد ظلت هذه المدرسة حتى بعد زوال سلطان العباسيين، ولم تكن آثار المسلمين الفلكية في الأندلس أقل أهمية من المشرق، وقد أيدت ولم يترجم منها إلا القليل الذي نجا من التحريق.

٢. **وعلم الجغرافية:** فقد عرف العرب قبل الإسلام الترحال والحج والتجارة التي تقتضي معرفة بالجغرافية كما كانت لهم علاقات تجارية مع الهند والصين وأوروبا. وفيما بعد توسع نطاق الحج على مستوى العالم الإسلامي براً وبحراً، كما جاءت الفتوحات لتضيف زيادة لمعرفتهم بالجغرافية، وكذلك الرحلة في طلب العلم، والدعوة، وكان للمسلمين الرحالة الأثر في زيادة علم الجغرافية، كالمسعودي صاحب (مروج الذهب)، والبيروني، وابن بطوطة، وقد كشفت كتب المسلمين في هذا المجال الأخطاء التي كانت لعلماء اليونان.

٣. **وفي العلوم الطبيعية:** وضع المسلمون الكتب الممتعة عن الحيوانات والنباتات والمعادن كالقزويني، وابن سينا له رسالة عن الحجارة ومنشأ الجبال، وبحثوا عن تطبيقات النباتات على الطب، وكانت حقائق الأندلس تضم أندر النباتات وخصوصاً غرناطة.

وتبعاً له **علم البيئة** : فقد جرت السنة مجرى القرآن في العناية بالبيئة فقد ذكر القرآن حيوانات ونباتات للتنبيه على أمرين:^١

^١ القضاوي. يوسف. ١٩٩٨م. السنة مصدرًا للمعرفة. ط٢. القاهرة: دار الشروق. ص ١٤١-١٤٢.

١. الاستمتاع بالعنصر الجمالي ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ النحل: ٦، و﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ الأنعام: ٩٩.
٢. الانتفاع بالعنصر المادي فيها مع أداء حق الله فيها، وقد نهي القرآن عن الفساد في الأرض.

أما من ناحية السنة: فقد كانت أكثر تفصيلاً وتفريعاً، ويرتبط موضوع الاعتناء بالبيئة بالجانب الصحي في الفقرة الأخرى مثل النهي عن البول في الماء الراكد والدائم وغير ذلك،^١ ومن الأحاديث التي فيها معنى المحافظة على البيئة قول الرسول ﷺ: «من قطع سدره صوّب الله رأسه في النار»^٢ وهو شجر ينبت في الصحارى ينتفع الناس بالتفويض في ظلاله والأكل من ثماره في طريق سفرهم، وللكلأ والمرعى وغير ذلك، ولأهميته نهي عن قطعه للمحافظة على توازنات الطبيعة، وقد سبقت السنة الجمعيات والهيئات التي تنادي بالمحافظة على البيئة من قبل الدول التي تتشدد بالحضارة وهي تلوث البيئة.

وقد اعتنت السنة بالتشجير والغرس وجعلته من أعظم الأعمال الصالحة، قال ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة»^٣، ومن الأمثلة على اعتناء السنة بالحيوان: «ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا يسأله

^١ البخاري. كتاب الطهارة. باب البول في الماء الدائم (٢٣٦). ج ١ ص ٩٤. والترمذي. ج ١ ص ٣٢. ج ١ ص ١٠٠. والنسائي. ج ١ ص ٧١. وابن ماجه. ج ١ ص ١٢٤.

^٢ رواه أبو داود. ج ٤ ص ٣٦١. والنسائي. ج ٥ ص ١٨٢. والبيهقي في السنن الكبرى. ج ٦ ص ١٣٩. وجمع الزوائد ج ٣ ص ٢٨٤. ج ٤ ص ٦٩. ج ٨ ص ١١٥.

^٣ رواه مسلم. كتاب المساقاة. باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع. (١٥٥١. ١٥٥٣). ج ٣ ص ١١٨٨. والبخاري في كتاب المزارعة. باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه. (٢١٩٥). ج ٢ ص ٨١٧. والترمذي. ج ٣ ص ٦٦٦. والدارمي. ج ٢ ص ٣٤٧. وأحمد ج ٣ ص ١٤٧. ١٩٢، ٢٢٨. ج ٦ ص ٢٤٠.

الله عز وجل عنها»، قيل: يا رسول الله وما حقها؟ قال: «أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها ويرمي بها»^١ ويستفاد من هذا الحديث: تحريم قتل الحيوان لغير الأكل، واحترام المخلوقات والرفق بها، والمحافظة على الثروة، والمسؤولية الأخلاقية بشمول الأخلاق الكائنات الحية الأخرى.^٢

٤. السنة النبوية وعلم الصحة والطب

إن المبادئ والمفاهيم المتعلقة بالعناية الصحية جاء بها القرآن الكريم وفصلتها السنة النبوية، وأهم ما جاءت به السنة النبوية اعتبار أن الصحة والعافية نعمة من نعم الله تعالى بالشكر ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم: ٧، ويتم هذا الشكر بالمحافظة عليها ومراعاتها عما يضادها، وعدم بذلها في محرم. قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»^٣ وقوله: «من أصبح معافى في جسده، آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»^٤، ومن دعاء النبي ﷺ طلب العافية: «اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافات الدائمة في الدين والدنيا والآخرة»^٥.

وقد أمر الرسول ﷺ بحماية الإنسان من الأمراض، لأن الله خلقه في أحسن تقويم، ليؤدي الرسالة المطلوبة منه، على الأرض، فيجب أن يحافظ عليه ليكون قوياً

^١ رواه الحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٢٦١. والنسائي في کتاب الصيد والذبائح. باب إباحة أكل العصفير. (٤٨٦٠). ج ٣ ص ١٦٣. والبيهقي في السنن الكبرى. ج ٩ ص ٨٦.

^٢ انظر: القرطبي. السنة مصدراً للمعرفة ص ١٤٥.

^٣ رواه البخاري في الرقاق. باب ما جاء في الصحة والفراغ (٦٠٤٩). ج ١١ ص ١٩٦. والمستدرک. ج ٤ ص ٣٤١. والترمذي. ج ٤ ص ٥٥. والدارمي. ج ٢ ص ٣٨٥. وابن ماجه. ج ٢ ص ١٣٩٦. ومسنده أحمد. ج ١ ص ٢٥٨. ٣٤٤.

^٤ الترمذي. كتاب الزهد (٢٣٤٧). ج ٤ ص ٥٧٤. وابن ماجه. في الزهد. باب القناعة (٤١٤١). ج ٢ ص ١٣٨٧. والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٠).

^٥ البخاري في الأدب المفرد. (٦٩٨). ج ١ ص ٢٤٣.

ويقدر القيام بما أمره الله سبحانه به كما قال ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»^١، وقال: «إن لنفسك عليك حق»^٢.

ومن تمام الصحة العناية بالنظافة: وموقف الإسلام من النظافة واضح، وهو اهتمام لا نظير له، حيث جعلت النظافة جزءاً من العبادة وشرطاً لها، وباب الطهارة أول ما تبدأ به كتب الحديث والفقه، وهو أول ما يتعلمه المسلم، فالطهارة مفتاح الصلاة، ولا تصح إلا بها، والوضوء يتكرر مرات في اليوم يقول ﷺ: «لا صلاة بغير طهور»^٣، وتفصيلات هذه الطهارة وخصوصاً ما يتعلق بالنساء منها كلها في السنة النبوية.

ومن شروط الصلاة نظافة البدن والثوب والمكان من كل خبث وقذر، كما عني بنظافة الأسنان فرغب في السواك، وإكرام الشعر، وتقليم الأظافر وغير ذلك جعلها من سنن الفطرة.

وفي التحذير مما يؤذي الصحة أو يلوث البيئة، نهى رسول الله عن البول في الماء وخصوصاً الراكد، أو الاغتسال فيها لأنه مظنة التلوث لعدم جريانه: «لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب»^٤ و«إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإنه لا يدري أين باتت يده»^٥.

^١ رواه مسلم عن أبي هريرة. كتاب القدر. باب في الأمر بالقوة وترك العجز. (٢٦٦٤). ج ٤ ص ٢٠٥٢. والنسائي (١٠٤٥٧). ج ٦ ص ١٥٩، ١٦٠. وابن ماجه ج ٢ ص ١٣٩٥. ومسنند أحمد ج ٢ ص ٣٦٦، ٣٧٠.

^٢ رواه مسلم. وكذلك البخاري رواه الترمذي. ج ٤ ص ٦٠٨. والطبراني في الكبير. ج ٩ ص ١٩٧. وأحمد ج ٢ ص ٢٠٠. والبيهقي. ج ٤ ص ٢٧٥. والدارقطني ج ٢ ص ١٧٦.

^٣ رواه ابن حبان في صحيحه. باب شروط الصلاة. ذكر نفي قبول الصلاة بغير وضوء لمن أحدث. ح (١٧٠٥). ج ٤ ص ٦٠٤. وفي مصنف ابن أبي شيبة. كتاب الطهارة. باب المحافظة على الوضوء وفضله. ح (٢٧، ٢٨، ٢٩). ج ١ ص ١٤. والطبراني في الأوسط. كتاب صفة الوضوء. ذكر التسمية ثم الوضوء. ح (٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤). ج ١ ص ٣٦٧. والمهيتمي في مجمع الزوائد. ج ١ ص ٢٢٨.

^٤ سبق تحريجه.

^٥ رواه مسلم. كتاب الطهارة. باب كراهية غمس المتوضيء وغيره يده.. برقم (٢٧٨). ج ١ ص ٢٣٣. وصحيح ابن خزيمة ج ٥٢. وابن حبان ج ٣ ص ٣٤٦. وأبو داود كتاب الطهارة. باب في الرجل يدخل يده .. ج ١ ص ٢٥. والنسائي. ج ١ ص ٦٣. وأحمد ج ٢ ص ٢٤١.

حث السنة على النشاط والحركة: رغب النبي ﷺ في العمل والنشاط والحركة والبكور فقال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»^١، وكان يستعيز من العجز والكسل، ودعا إلى رياضة الأجسام: العدو والرمية وركوب الخيل (الفروسية)، ورغب الأبناء في تربية أولادهم على ممارستها، وشرع التنافس والمسابقات تشجيعاً على ذلك، وسبق بين الخيل وأعطى للسابق كما شرع: المصارعة واللعب بالحراب والسيوف والمسابقة على الأقدام ونحوها^٢، ولكل ذلك أمثلة كثيرة ففي الحديث: «أن ركابة صارع النبي ﷺ، فصرعه النبي ﷺ»^٣، وعن أنس: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، لعب الحبشة لقدمه بجراهم»^٤، وشجع على الرمي وفسر قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال: ٦٠، «ألا إن القوة الرمي... ثلاثاً»^٥.

وقد منعت السنة كل ما يضر بالبدن من المسكرات، كما منعت الإسراف في الطعام والشراب فقال: «ما ملأ لآدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^٦، وكذلك نهى عن التقدير والامتناع عن الطيبات.

^١ رواه ابن حبان في صحيحه. ج ١١ ص ٦٢-٦٣. والترمذي في كتاب البيوع. باب ما جاء في التكبير في التجارة. ج ٣ ص ٥١٧. والدارمي. (٢٤٣٥). ج ٢ ص ٢٨٣. وأبو داود ج ٣ ص ٣٥. والنسائي ج ٥ ص ٢٥٨. وابن ماجه. ج ٢ ص ٧٥٢. وأحمد ج ١ ص ١٥٦. ج ٣ ص ٤١٧. ج ٤ ص ٣٨٤.

^٢ راجع: القرضاوي يوسف ص ١٥٣.

^٣ رواه الترمذي في كتاب اللباس. باب العمائم على القلائس (١٧٨٤). ج ٤ ص ٢٤٧. والشوكاني. نيل الأوطار. ج ٨ ص ٢٥٥.

^٤ الجامع لمعر بن راشد. ١٠ ج ٤٦٦.

^٥ الترمذي. كتاب تفسير القرآن. باب ومن سورة الأنفال (٣٠٨٣). ج ٥ ص ٢٧٠. وأبو داود ج ٣ ص ١٣. وابن ماجه. ج ٢ ص ٩٤٠. وسنن البيهقي ص ١٣.

^٦ رواه أحمد ج ٤ ص ١٣٢. والترمذي وقال: حسن صحيح (٢٣٨٠). وابن ماجه (٣٣٤٩) وغيرهم كالنسائي وابن حبان والحاكم.

كما نهى ﷺ عن إرهاق البدن حتى في العبادة وقال للذي نذر أن يمشي إلى الحج: «إن الله عن تعذيب هذا لنفسه لغني»^١، وأمره أن يركب، وعلى هذا شرعت الرخص في أداء الفرائض إذا كان العمل بها يؤذي الجسم، كالتميم، والصلاة قاعداً أو مضطجعا، وقال: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته»^٢.

العناية بالطب والتداوي: وذلك في نوعيه الطب الوقائي والعلاجي، ومن الأول نصائحه بترك الإسراف كما في الحديث السابق وقد قيل فيه: أنه جمع الطب كله، وفي ترخيصاته كذلك نوع من الوقاية، وما تحريم الخمر والمسكرات إلا نوع من الوقاية لعالم الخبائث، كما أقرت السنة النبوية سنة الله في العدوى، وأمرت بالاحتراز والوقاية والعزل الصحي من الأوبئة كالطاعون، وقال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه»^٣ متفق عليه وفي آخر: «لا يوردن مُمْرِضٌ على مُصَحٍّ»^٤ متفق عليه، أي لا يخلط الإبل المريضة بالصحيحة.

أما عنايته في التداوي فهي معروفة، وفي كل أبواب المصنفات نجد كتاب أو باب في الطب النبوي، وقد جاء عن النبي أحاديث تصف بعض الأدوية لبعض الأمراض، والراجح أنها ليست كلها من الوحي والدين بل أن منها ما هو من خبرات البيئة والواقع^٥، ولكن بالتجربة عرف حديثاً أن أكثر هذه الأحاديث فيها إعجاز علمي طبي. وقد وفق الرسول ﷺ بين التداوي والإيمان بالقدر الذي رآه

^١ مصنف ابن أبي شيبة. (١٢٤١٣). ج ٣ ص ٩٢. وابن حزم في الأحكام ج ٥ ص ٢٠.

^٢ رواه أحمد (٥٨٦٦). ج ٢ ص ١٠٨. وابن حبان والبيهقي في الشعب. كما في صحيح الجامع الصغير (١٨٨٦).

^٣ البخاري. باب ما يذكر في الطاعون. (٥٣٩٧). ج ٥ ص ٢١٦٣. وموطأ مالك. كتاب الجامع. باب ما جاء في الطاعون. (١٥٨٨). ج ٢ ص ٨٩٦. والنسائي. ج ٤ ص ٣٦٢. ومجمع الزوائد. ج ٢ ص ٣١٥.

^٤ البخاري. كتاب رآه. باب لا هامة. (٥٤٣٧). ج ٥ ص ٢١٧٧. وسنن أبو داود. باب في الطيرة. (٣٩١١). ج ٤ ص ١٧.

^٥ انظر القرضاوي. السنة مصدر للمعرفة. ص ١٦١.

البعض معارضاً للتداوي، فحين سئل: يا رسول الله! أرأيت رقى نسترقئها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها، فهل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»^١، كما جعل جزءاً من الوقاية والعلاج الرقى والذكر بأحاديث كثيرة، كما عنيت السنة بالصحة النفسية للعلاقة المتبادلة بين الجسم والنفس في التأثير، وله في علاج الأمراض الاجتماعية المؤثرة في النفس وعلاجها أحاديث كثيرة كالحسد والبغضاء والغلو وغير ذلك.

وكان من نتائج هذه التوجيهات النبوية اهتمام المسلمين ببناء المستشفيات والمعاهد الطبية لاحقاً، وقد أفاد العالم من حضارتنا في إقامة المشافي والمعاهد الطبية وتخرج أطباء لازالت تعتز بهم الأمة، ففي عهد الوليد بن عبد الملك أنشئ أول مستشفى في الإسلام هو خاص بالمجذومين.. وكانت المستشفيات نوعين: متنقلاً وثابتاً، والأول عرف في الإسلام في غزوات الرسول ﷺ أي مستشفى حربي، وقد توسع فيه الخلفاء والملوك فيما بعد، أما الثابتة فقد كانت تفيض بها المدن والعواصم، ففي قرطبة وحدها خمسون مستشفى، وهناك محطات للإسعاف بالقرب من الجوامع، وهناك مستشفيات للجيش وغيرها عامة قسم للذكور وقسم للإناث، وفي كل مستشفى إيوان للمحاضرات يتداول فيه الأطباء والتلاميذ، كما يلحق معها مكتبة عامرة بكتب الطب.^٢

وأخيراً استطاعت السنة بالتوجيه الرباني، أن تبني حضارة هزت الدنيا ولا زالت تملك المقومات لنهوضها لأن فيها صفة الشمول والواقعية، وقد شهد بذلك كثير من المنصفين ممن اطلع على معالم النهضة الإسلامية من غير المسلمين مثل توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)، وغوستاف لوبون في (حضارة

^١ رواه أحمد ج ٣ ص ٤٢١. والترمذي (٢٠٦٥). كتاب رآه. باب ما جاء في الرقى والأدوية. ج ٤ ص ٣٩٩. وباب لا ترد الرقى والحرز من قدر الله (٢١٤٨). ج ٤ ص ٤٥٣. وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٣٤٣٧). والحاكم ج ٤ ص ١٩٩.

^٢ راجع تفاصيل نظام هذه المستشفيات في السباعي. من روائع حضارتنا. ص ١٥٧ - ١٦٠.

العرب) وسيجmond هونكة في كتابها الشهير (شمس العرب تشرق على الغرب) حيث رأى هؤلاء وغيرهم أن الحضارة الغربية الحالية قامت على أساس الحضارة الإسلامية، علماً أن الحضارة الإسلامية تملك شيئاً زائداً هو أنها قائمة على الأخلاق والإيمان والتوحيد.

المصادر

- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي. ١٤٠٩هـ. مصنف ابن أبي شيبة. تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد.
- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي. ١٩٩٣. صحيح ابن حبان. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني ١٣٧٩هـ. فتح الباري شرح صحيح البخاري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب. بيروت: دار المعرفة.
- ابن خلدون عبد الرحمن. د.ت. مقدمة ابن خلدون. بيروت: ط دار الكتب العلمية.
- ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني. د.ت سنن ابن ماجه. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار بيروت: الفكر.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي. د.ت. سنن أبي داود. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: دار الفكر.
- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني. د.ت. مسند أحمد. مؤسسة مصر: قرطبة.
- البخاري، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله الجعفي. ١٩٨٧. الجامع الصحيح. تحقيق: مصطفى ديب البغا. بيروت: ط ٣ دار ابن كثير.
- البوطي، محمد سعيد رمضان. ١٩٩٢. منهج الحضارة الإنسانية في القرآن. دمشق: ط ٢ دار الفكر.

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي. ١٩٩٤. سنن البيهقي الكبرى. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكة المكرمة: مكتبة دار الباز.
- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي. د.ت. سنن الترمذي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري. ١٩٩٠. المستدرک على الصحيحين. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد. ١٤٠٧. سنن الدارمي. تحقيق: فواز أحمد زمرلي. وخالد السبع العلمي. بيروت: دار الكتاب العربي.
- السباعي مصطفى. ١٩٥٩. من روائع حضارتنا. دمشق: دار السلام.
- السعيد، عبد الله عبد الرزاق مسعود. ٢٠٠٠م. الإسلام ومؤسساته التعليمية الطبية. دار عمار. عمان.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد. ١٤١٥هـ. المعجم الأوسط. تحقيق: طارق بن عوض الله الحسيني. القاهرة: دار الحرمين.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد. ١٩٨٥. المعجم الصغير. تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير. عمان/الأردن: دار عمار.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد. ١٩٨٣. المعجم الكبير. تحقيق: حمدي السلفي. الموصل: مكتبة العلوم والحكم.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. ١٤٠٥هـ. تفسير الطبري. بيروت: دار الفكر.
- عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف. ١٤١٥. نواقض الإيمان القولية والعملية. الرياض: دار الوطن.
- علي عبد الحليم محمود. ١٩٩٤م. التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلب عليه. المنصورة - مصر: ط دار الوفاء.
- الغزالي، محمد. ١٩٩١. علل وأدوية. ط ٢. الاسكندرية - مصر: دار الدعوة.

قاسم شهاب صباح. ٢٠٠٠م. علم النفس النبوي. بيروت — لبنان: ط مؤسسة الرسالة.

القرضاوي، يوسف. ٢٠٠٠م. كيف نتعامل مع السنة النبوية. القاهرة: دار الشروق.
القرضاوي، يوسف. ١٩٩٤م. الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة. القاهرة: مكتبة وهبة.

القرضاوي، يوسف. (١٩٩٨م). السنة مصدر للمعرفة والحضارة. ط٢. القاهرة: دار الشروق.

القرطبي، أبو عبد الله. ١٣٧٢هـ. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني. القاهرة دار الشعب ط٢.

مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي. د.ت. موطأ مالك. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. مصر: دار إحياء التراث العربي.

مجموعة مؤلفين. ١٩٩٠م. الثقافة الإسلامية. ط٤. منشورات جامعة صنعاء.

محسن عبد الحميد. ٢٠٠١م. قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر. بغداد.

محمد أمزون. ٢٠٠٢م. منهج النبي في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة. القاهرة: ط دار السلام.

محمد هيشور ١٩٩٦. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري. د.ت. صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن. ١٩٨٦. سنن النسائي. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية ط٢.